

محمد المختار السوسي اللغوي الأديب

إسماعيل برو¹

ismaelbarou@gmail.com

مقدمة تمثل اللغة والأدب في الفكر الإنساني أهمية كبرى، لما يسهمان فيه من حفظ الهوية المجتمعية بما يتناغم ومنطقها العقدي وتاريخها، فلا يمكن أن نتصور أن لغةً ما لا تنتج أدبا، كما أننا لا نتصور أدبا لا ينسكب في وعاءٍ لغويٍّ يمتزج فيه، ثم يخرج منه أدبا خالصا؛ فهما حقلان متكاملان، لا ينفصلان. والأدب كما يقول فاليري "لا يمكن أن يكون إلا توسعا لبعض خصائص اللغة واستعمالا لها". أي أن الأدب إبداع لغوي، ومرآة صادقة لتطور اللغة.

من هنا كانت أهمية الدور الذي ينهض به مثقفو الأمة عامة في تنمية الوعي بأهمية العربية وعلومها.. ومن بين هؤلاء المثقفين نجد الأديب المؤرخ محمد المختار السوسي صاحب الموسوعة التاريخية /المعسول الذي امتاز برؤية خاصة، فهو أديب لغوي امتاز بشخصيته النقدية، وأسلوبه الأدبي المانع. وتسعى هذه الدراسة إلى النظر فيما أثله الرجل في مكتوباته قاصدة بذلك البحث في جانب من الجوانب التي أبدع فيها، وهي اللغة والأدب. وغرض الدراسة إلقاء الضوء على الذي قام به محمد المختار السوسي للعناية باللغة والأدب؟ وكيف ساهم بهما في تدعيم وتقوية خطاب الهوية، وترسيخ ثقافة الانتماء؟ ولبيان هذا سنتناول أولاً، محمد المختار السوسي اللغوي الأديب؛ ومن ثم، مكانة اللغة العربية عند المختار السوسي؛ وأخيراً، جهوده في خدمة اللغة العربية.

[]

1/ محمد المختار السوسي اللغوي الأديب: برز في الساحة المغربية أقلام أدبية شهيرة أبانت عن علو كعبها في بث القيم الحقيقية الأصيلة في الأمة، مجتهدة في خدمة الأدب. ويعد محمد المختار السوسي من أهم الأقلام في ميدان الأدب، لغزارة إنتاجه وجمالية أسلوبه، وبراعة تصوره.. فهو أديب مانع وعلامة جامع، وأحد القمم في علم التاريخ. مثل حالة فريدة في الثقافة والأدب المغربيين ووهب للمكتبة المغربية موسوعة تاريخية من بين أضخم الموسوعات في زماننا مما وضعها في مصاف المكتبات العربية والعالمية إلى جانب كتب الفقه وكتب السير والأدب، فهو اختصار موسوعة علمية. فالرجل عاش بين الكتب ويقول عن نفسه "كنت لا أفارق كتابا". فقد عُرف المختار السوسي منذ نعومة أظافره بشغف القراءة وحب المطالعة قال متحدثا عن نفسه²:

أولعت منذ عرفت قبيلي من دبيري، وميزت يميني من شمالي، بالتاريخ والأدب، وبمطالعة كتبهما، فلا أظل ولا أبيت منذ كحلتي العربية بإثمدتها، وأذاقتني حلاوة معانيها الطلية، فأنستني بخمرتها، إلا بين كتاب أبتدئه وآخر اختتمه... كيفما كان الكتاب مادام يمت إلى الأدب والتاريخ.

فهو أديب بالفطرة، فلا عجب أن ينال في هذا الجانب إعجاب معاصريه من كبار العلماء والمثقفين: وصفه محمد القباح، وهو لا يزال طالبا بالرباط بقوله³:

شاب لا يزال في ريعان شبابه متضلع من اللغة العربية تضلعا كبيرا يعجز عنه من هو أكبر منه سنا، وقد أوتي براعة نادرة في قرض الشعر، وارتجاله وشعره مجلي للعواطف الحية والشعور الدقيق، يحادثك في مواضيع من العلم شتى بكلام لين وصوت خافت.

وتحدث عنه عبد الله الجيراري قائلا⁴:

محمد المختار السوسي يعد في مقدمة رجال العلم والمعرفة والاطلاع، شخصيته فذة قلما نجده يترك الكراس والكتاب من يده، لا تراه إلا قارئا مطالعا وحده وبين الملة من إخوانه على السواء [...] لا يثنيه عن المعرفة في شتى أفانيتها شيء منذ الفتاة إلى الشيخوخة إلى أن وافاه الأجل.

شهادات قيمة لم تأت من فراغ، فالدارس لسيرة ومؤلفات محمد المختار السوسي يستوقفه ترحال الرجل، وزياراته المتعددة. فلا تجد الرجل إلا ضيفا عند عالم أو فقيه أو شاعر أو عند أديب من الأدباء. كان طوفا على مجالس العلم والعلماء، ولا حديث في مجلسه إلا عن الأنساب ومعارف العلوم والآداب؛ ينتقي أطايب القصائد والفوائد كما يُنتقى أطايب الثمر..

وإن جلس محمد المختار السوسي في مجلس لا تفوح منه رائحة العلوم انصرف بخاطره وروحه وبقي شبّهه. يحكي لنا المختار عن أحد هذه المجالس-جلسة في البلدية- التي لم توافق هواه قائلا: "وأنا في ذلك كله مشغول الفكر في صوغ أبيات من القصيدة البائية التي قلتها إذ ذاك في ذكرى المتنبّي، فكان من حضر في واد. وأنا في واد. فبريك أمثلي يصلح لمثل هذه المجالس!"⁵ قصيدة يقول في مطلعها⁶:

هزت قبور بني حمدان في حلبا "" ذكرى تسابق فيها السن الأدبا

كيف لا وقد هضم كتب الأقدمين وقرأ ألف ليلة وليلة ! فهو يخبرنا: "كان أول كتاب طالعته وأنا ابن عشر سنين"⁷ إلى أن مر على المستطرف، و حياة الحيوان للدميري وابن خلكان ومروج الذهب ونفح الطيب، وقلائد العقيان والاستقصاء، ونزهة الحادي. وكلها كتب طالعها في حياته الأولى إلى أن وجد خزائن تطفح بالكتب الكبرى، يقول المختار "أقبلت بهم الذي لا يشبع على التهام كل ما تقع عليه عيني كيفما كان الكتاب، ما دام يمت إلى الأدب والتاريخ"⁸.

وصفوة القول أن الرجل قد رشف من بحر الأدب، وقد ظهر ذلك جليا، خصوصا في كتابيه: الإلغيات و مترعات الكؤوس اللذين هما العمدة في الباب، فقد ضم فيهما خواطر أدبية، وأفكارا وصورا ورموزا ومشاعر تشكلت معه طوال السنين. أعانه في ذلك أسلوبه اللغوي المتميز: فقد اختط لنفسه لغة وقاموسا خاصا به، تميز به عن غيره، فهو ليس من الأدباء الذين تكتهم اللغة، بل هو من يكتبها، فقد كانت اللغة أداة طبيعة في يده.

وقد امتاز محمد السوسي بميزتين، نال القبول بهما في الأوساط الأدبية والعلمية: أنه صاحب قضية ورسالة؛ وأنه صاحب ذاكرة تاريخية. فهذا الإقبال الشديد على المطالعة لم يصرفه عن القضايا المصرية الكبرى لأمتة ووطنه. لم يكن محمد المختار السوسي أديبا أجوف لا غيرة له على دينه وعروبه وإسلامه، بل كان صاحب رسالة تربوية إرشادية يقول متحدثا عن نفسه "نبئت مني غيرة وطنية نسيت بها نفسي ومصالحي الشخصية، فأعددت نفسي فداء لديني ولوطني ولأمتي التي هي أمة العرب والإسلام جمعاء"⁹. وما أجمل الأديب أن يحمل رسالة تربوية إرشادية هدفها الإصلاح وتربية الأجيال على الأخلاق الإسلامية والوطنية الصادقة، يقول ناصحا لأبناء أمتة جميعا "يجب علينا كمسلمين مهذبين أن نحمل أعمال الناس محامل حسنة، وأن لا نقابل من عسى أن يسيء إلينا إساءة أخرى، وإلا فنحن إذن لسنا برسول الخير"¹⁰. لذا كان السوسي يعمل جاهدا على إزالة أدنى شائبة يمكن أن تؤدي إلى تكدير صفو علاقاته الأخوية مع كل من تعرف عليه شعاره في ذلك قوله:

اغض وسامح واعرض "" فللأنام معاذر

فليس يحيا سعيدا "" من لم يكن جد عاذر¹¹

وهنا يتساءل مع نفسه مستغربا كيف للأديب أن يجزع، ويضيق صدره، وبين يديه دفتر وكتاب، يقول شعرا¹²:

كيف يشكوا الأديب في الصدر ضيقا "" ولديه دفاتر الآداب

فهي نعم الأصحاب إن خانه الدهر "" وأناه من لقا الأصحاب

تتملى منها بما هو أحلى "" من رضاب المفلجات العذاب

متع العيش كلها مستمتا "" ن لمن يغتدي جليس كتاب

في إطار هذه الرؤية، والمعاني الرقيقة، يتحرك محمد المختار السوسي محدداً للأدب وظيفته الأساسية البعيدة عن التعصب غير داخل في جحر الآداب العالمية الهزيلة الخاوية من المعنى. والتي تشكل تهديداً للهوية العربية وخصوصيتها الثقافية. وقد غلف محمد المختار السوسي هذه الرسالية في أبهى حلل الجمال البياني الذي أخذ منه حظا وافرا. والبيان جمال.. كما يقولون "أن البيان صناعة الجمال في شيء وجماله هو من فائده، وفائده من جماله، فإذا خلا من هذه الصناعة التحق بغيره، وعاد باباً من الاستعمال بعد أن كان باباً من التأثير"¹³.

أما أنه صاحب ذاكرة تاريخية، فهو قد جعل حفظ التاريخ من الاندثار وحماية الذاكرة حتى لا يطالها النسيان أو التهميش، أهم وظيفة له كأديب. لذا كانت "فكرة وضع المترعات" كغيره من مؤلفاته تنطلق من وعي السوسي بوجوده الثقافي، أي وعيه بالقيمة الثقافية لأسرته وقبيلته ومنطقته ووطنه"¹⁴.

وقد عاب محمد مختار السوسي على السوسيين عدم اهتمامهم برجالاتهم والتفريط بهم.. وهذا العيب لا يزال ماثلاً إلى الآن كأنه ممتزج بدمائهم مستحوذ على ألبابهم، خصوصاً وأن بعض الأقاليم لم تنل حظها من التأريخ الأدبي سواء في الكتب المدرسة أو غيرها رغم وجود قامات سامقة؛ وهذا ما صرح به عباس الجيراري قائلاً "أما الكتب المدرسية التي يزعم أصحابها أنهم يضعون بها تاريخاً للأدب العربي، فإن قارئها لا يلبث أن يحس غياباً مطلقاً لبعض الأقاليم العربية ولا سيما المغرب"¹⁵. لذا عمل محمد المختار السوسي على سد هذا الثغر، فقام يقتفي سير الأدباء وغيرهم من أبناء منطقته جميعهم، وذلك لغايتين: الأولى، توفير المادة التاريخية للأجيال المقبلة. يقول محمد المختار: "لهؤلاء يجب على من وفقه الله من أبناء اليوم أن يسعى في إيجاد المواد الخام لهم في كل ناحية من النواحي التي تندثر بين أعيننا اليوم" حتى يتمكنوا من إتمام استقلال البلاد فكرياً. ولهذا انتقد محمد المختار السوسي المركزية المغربية التي لا تلقي بالاً للمراكز التقليدية المهمشة لغويًا وحضاريًا. والغاية الأخرى استهدفت عدم ترك التاريخ حكراً على أسروفتات معينة، أي أنه قام "بدمقرطة الإرث التاريخي" كما يسميه الدكتور مولاي الحسن السكراني.

2/ مكانة اللغة العربية عند المختار السوسي: لقد احتلت العربية أو "لغة الدين" كما يسميها المختار السوسي، منزلة متميزة في مكتباته، فما من فصل أو باب من كتابه إلا واللغة سارية في شرايينه، تنظيراً وتطبيقاً، فقد كان رحمه الله تعالى على وعي بأهمية اللغة العربية، ودورها في بناء وحدة الأمة العربية باعتبارها قضية من الدين، فلا يمكن فهم الدين إلا من خلالها، ولا يمكن تذوق أسرار العبارة القرآنية وبراعة جوامع الكلم النبوي إلا بالجلوس تحت ظلالها. وقد رأى السوسي العربية لغة مشرفة، شرفها الله تعالى واصطفها من بين اللغات جميعاً، لتكون وعاءً لكتابه الخالد "القرآن الكريم" حين أنزل كتابه على رسوله بلسان عربي مبين "إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون"؛ فهي ليست "وعاء الفكر" أو "اللسان الناطق عن المعرفة" فحسب بل هي لغة الوحي "دين العربية ولغة الدين"¹⁷ لغة شريفة مشرفة، واصله بين حقائق الأرض ومعاني السماء. فهي اللغة الوحيدة القادرة على حمل رسالة الله إلى الإنسان "وما تثبتت دين الإسلام إلا ببث لغته"¹⁸. وهي "جزء لا يتجزأ من الدين باعتبارها وعاء الوحي ومعلوم أن الصلاة - وهي الركن الثاني من أركان الإسلام - لا تصلح بغير العربية، "لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب"¹⁹ ممّا يعني أن المسلم (غير العربي) ملزم بأن يتعبّد بهذه اللغة؛ ولذا فهو مضطر إلى تعلّمها، وإدارة لسانه بها.

والسوسي في هذا ليس ببعيد عما رآه أسلافه من أئمة الفقه والعربية. فالإمام الشافعي (ت 204هـ) يقول²⁰:

فإذا كانت الألسنة مختلفة بما لا يفهم بعضهم عن بعض، فلا بد أن يكون بعضهم تبعاً لبعض، وأن يكون الفضل في اللسان المتبع على التابع. وأولى الناس بالفضل في اللسان من لسانه لسان النبي. ولا يجوز - والله أعلم - أن يكون أهل لسانه أتباعاً لأهل لسان غير لسانه في حرف واحد.

كما يروى عن الزجاج (ت 311هـ) أنه سمع أبا العباس المبرد يقول: "كان بعض السلف يقول: عليكم بالعربية فإنها المروءة الظاهرة، وهي كلام الله - عز وجل - وأنبيائه وملائكته"²¹.

فقد كانت دراسة اللغة العربية عند الأقدمين "مرتبطة بالعامل الديني، ونتيجة لهذا الارتباط الوثيق فقد خلفت لنا العصور الأدبية على امتداد التاريخ اهتماماً كبيراً بلغة القرآن الكريم سواء فيما يتصل برصد مرويّاتها من الآثار الأدبية من شعرونثر، أو فيما يتصل بإحصاء مفرداتها، وتسجيل أوابدها وغرائبها في المعجمات والقواميس اللغوية، أو فيما يتصل باستنباط القواعد والأسس التي تعنى بسلامتها، والمحافظة على أصولها الموروثة، ووضع الدراسات اللغوية الخاصة باكتناها أسرارها، والكشف عن خصائصها ومميزاتها"²².

ويعتبر محمد المختار السوسي العربية "أفصح اللغات وخير لغة أخرجت للناس"²³ لا يتحقق الإحياء إلا بها، فقد اختصها الله لتكون لساناً لكتابه وقد "شذبتها حكمة القرآن بالمثل العليا. فاستحقت أن تكون كلغة عامة لجميع من يعتنقون الإسلام من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب"²⁴ فهي لسان المسلمين أجمعين.

لكن اللغة هي أيضاً لدى السوسي سمة وميزة وطنية قومية مشكلة للذاكرة الفردية والجماعية، تسهم في تكريس تماسك المجتمع ووحدته، مما يجعلها رمزا وشعارا للهوية وللسيادة الوطنية والعربية في ظل بروز دعوات طائفية وعرقية تريد بتر لسان الأمة الواحد الموحد، إضافة إلى التصادم اللغوي وهيمنة الثقافة الأجنبية التي حملتها لنا رياح العولمة والحدثة يقول المختار السوسي "اللغة العربية هي شعار المغرب وكثره الموروث المحافظ عليه، كلغة رسمية"²⁵. ويعتبر محمد المختار السوسي أن اللغة هي أم القضايا، والمحافظة عليها كالمحافظة على الوطن، وتحريرها كتحرير البلاد من المستعمر، ويتساءل مستغرباً²⁶:

وليت شعري لماذا كنا نحرص على الاستقلال إن لم تكن أهدافنا المحافظة على اللغة العربية، التي استمات المغاربة كلهم، عربهم وبربرهم، في جعلها هي اللغة الوحيدة في البلاد.

بهذا يعلن محمد المختار السوسي أن اللغة موروث حضاري، وطني، كافح عنها الأجداد لتثبيت قدمها، لتصبح لغة البلاد، فأشربت في النفوس والعقول²⁷:

وقد تلاءمت في تقاليدنا الإسلامية المغربية مقتضيات حياتنا وديننا وعاداتنا وحياتنا وعرفت في مجتمعتنا تلاءماً تاماً بين العربية ولغة الدين وعادات تكونت تحت نظرهما في قطرات مزج فيه العرب والبربر تمازج الماء بالراح.

فلا غرو أن محمد المختار السوسي قد حمل على عاتقه خدمة العربية التي هي لغة الدين، والوطن، كما تفتن للمخاطر التي تهدد اللغة، والتي حاولت أن تقتلع ما تبقى من أثر في نفوس الأجيال، فقام بالدور الذي يجب عليه القيام به كوطني غيور على وطنه، قبل أن يكون مثقفاً، فهو يقول²⁸:

إنما لا نحب أن ينسى أولادنا مدينتنا الشرقية ومميزاتها القومية ولغتنا الموروثة [...] ولكن ما العمل اليوم ولا تزال الأبواب مجافة، والحضارة الغربية تغلب حتى تجرف مقوماتنا وديننا وتقاليدنا، واللغة الغربية كادت تنسي أبناءنا اللغة العربية حتى كأنها لا شيء.

3/ جهود محمد مختار السوسي في خدمة اللغة العربية: لكل لغة تحديات تواجهها، فلا تسلم لغة قوم من مخاطر

تهدد لسانها، ووجودها، خصوصاً في زمن الصراع الحضاري، الذي يتسم به زماننا. وقد دفع هذا المختار السوسي ليقف سدا منيعاً أمام هذه التحديات والمخاطر بكل ما أوتي من عزم وحزم، فقام ببث خطاب الاعتزاز لمحاربة اليأس في قلوب الشباب. محذراً من ثقافة الانهيار بالغرب، ومعززاً لثقافة الانتماء للأمة مخاطباً الإلغيين قائلاً²⁹:

فاللغة العربية عندنا -معرش الإلغيين- هي لغتنا حقا التي نعتز بها. لأن بها مراسلتنا ومخاطبتنا حين نريد أن نرتفع بأنفسنا عن مستوى جيراننا.

ولحفظ هذه اللغة وجعلها لغة معززة في النفوس والعقول ومفخرة للأنساب. قام محمد المختار السوسي لخدمتها من باب الواجب الذي قطعه على نفسه منذ أن التصق البراع في يده، خدمة تجلت في أمرين: أولهما أن يجعل التعليم في خدمة اللغة؛ والآخر، أن يجعل التأليف خدمة للغة. وفيما يتصل بالتعليم، اعتبر محمد المختار السوسي التعليم سبيل الخلاص، ووظفه خدمة لعلوم العربية، وآدابها، وتصدياً للهجمة الثقافية الاستعمارية، حيث قام بإنشاء وبناء المدارس، يقول عن هذه المرحلة وهو في مراكش "جعلت هدفي الوحيد هو نشر التعليم الصحيح. وبث التفكير في مراكش بواسطته"³⁰.

ولم يكن اشتغال محمد المختار السوسي بالتعليم ولزومه، هروبا من المواجهة التي كانت يومئذ فرض عين على النخب المثقفة لمقاومة الاستعمار بكل الطرق، وإنما كان في صلب الميدان. فهو يعلم علم اليقين أنه مغضوب عليه من قبل المستعمر، ويعلن ذلك قائلاً: "إنني مبغض مشنوء عند هؤلاء الذين يريدون أن يجتثوا الدين الإسلامي من هذا القطر، باجتثاث هذه العلوم العربية. ولا أكره عندهم ممن يحاول إبقاءها حية"³¹. فقد خبر محمد المختار السوسي ثقافة العدو، وعرف تفكيره بأن الاشتغال بالعلوم خصوصاً العربية أشد على المستعمر ممن يشتغل بصريح السياسة "فلم ينج من اعتناق السياسة عند هؤلاء المستعمرين إلا كل جاهل قدم كسول قابع لا يتحرك"³². فكان يرى أن الجهل أقوى عدو للشعوب، إذا قضي عليه، قضي على كل مستعمر مغتصب.

ولم يتوانى السوسي عن الماضي في حركيته التعليمية النشطة وعن بذله استحقاقاتها الثقيلة، إذ أن هذه الحركية فتحت له باب التواصل مع الحركة الوطنية، فقد كان يفد إليه الكثير من المقاومين سواء للاستماع لدروسه العلمية في المساجد، أو

طلبا للالتحاق بمدارسه للتلمذ عليه، مما أزعج أجهزة المستعمر، حتى كان نفيه إلى بلدته في إلغ أولا، وإلى معتقل الصحراء ثانيا، بعد أن أدى واجبه الديني والوطني. وهو يقول عن تجربة هذه المرحلة قائلا³³:

حللت بالحمراء وقد أقيمت فيها مرساتي وأنوي أن أقضي الواجب علي لديني ولوطني ولشعبي، ما بين تلميذ يهذب، وبين درس إرشاد يلقي، وأنا في جانب ذاك أعاني البراع فيما عسى أن يرفع من شأن هذه الأمة من إحياء ما اندثر من ماضيها، ومن المحافظة على العربية الفصحى التي أراها إذ ذاك في انهيار، ففي هذه الميادين الثلاثة قضيت أزمانا تكشف عن أعمال كان فضل الله علي فيها عظيما.

لقد كان التعليم عنده هما دينيا ووطنيا، فالسوسي لم يكن من "العلماء العريضي الأفقية. المهومين بالجاء والرتب وإنصاف المتعلمين الذين هم اليوم الداء العظيم الذي ينخر جسم الأمة من الداخل"³⁴ كما يقول.

ولقد نجح محمد المختار السوسي في مشروعه التعليمي بعميق إيمانه بأن الممارسة التعليمية أخطر، وأشد من الممارسة السياسية، خصوصا إذا بنيت المؤسسات التعليمية على صرح هوياتي متين، وسُيِّرَ بمنهج علمي متجدد مبتعد عن الجمود والانغلاق، وهو يقول مبرزا قصده من التدريس³⁵:

إنني لا أقصد بدروسي لا في الحديث ولا في الأصول إلا التلاميذ النجباء الذين لا يريدون في مستقبلهم أن يكونوا كالفهاء الجامدين ذوقا وعلمًا وتحصيلًا.

لا غرو أن السوسي صاحب رؤية تجديدية مقصدية منفتحة، رؤية بعيدة كل البعد عن الصراع الفقهي والجدل الكلامي الذي ابتعد عنه كل البعد صارفا جهده ووقته في قضايا وطنه وأتمته.

أما عن جهود المختار السوسي في التأليف خدمة للغة، فلسان حال السوسي يصدق بأن أقل معروف يهدى للغة أن تكتب فكرك بها، وغاية المعروف أن تعرف بمن سبقك لخدمتها، فتحيتها، وتحياها. هذا ما فعل محمد المختار السوسي، فحياته حافلة بالتأليف، فقد أطلق العنان لبراعه ليخط ما تمليه عليه ذاكرته الثاقبة بلغة غاية في البيان، وهو جهد آخر ينضاف إلى جهده التعليمي. والهدف من كل هذا خدمة البيان العربي الفصيح وأدبه وتاريخه وصونه من الطمس والاندثار، ولغة الاستعمار، التي بدأت تزحف لتشوّه حقيقة التاريخ. واللغة حقيقة تاريخية.

ورغم الضغوطات والصعوبات التي كانت تواجه المختار السوسي، وتحول بينه وبين الكتابة إلا أن عزمه كان أمضى، فما ترك فنا في علوم الإنسانية إلا ألف فيه تقريبا، إلا أن الأدب والتاريخ نالا من يراعه الحظ الوافر. ففي الأدب، خلف لنا قصائد ودواوين ماتعة أغلها ما زالت مخطوطة، ويبقى كتاب *الإلغيات* في ثلاثة أجزاء و *مترعات الكؤوس* في جزأين لا يزالان مخطوطتين- ذكره في *سوس العالمية*- أهم مرجعين في باب الأدب. أما في التاريخ، فله *المعسول* "في الإلغيين وأساتذتهم وتلامذتهم وأصدقائهم السوسيين" اشتهر به، ناهيك مؤلفيه *خلال جزولة* و *من أفواه الرجال*، وغير ذلك كثير.

كما ألف في الفقه والتصوف والسير والثقافة الشعبية، وفي الرحلة، وفي الجمع والتحقيق، وقف في مؤلفاته عن الآثار، والعادات، وجمع الأمثال، والأشعار الشعبية وتحدث عن الأعراف، ودون الأنساب، وروى أخبار المعارك والحروب وتحدث عن المراكز والمدارس العلمية... كل هذا بلسان عربي مبين. كما حرص من خلال تأليفه أن يبرز مقصدا آخر نبيلًا هو إسهام السوسيين في نشر علوم العربية وآدابها لأن³⁶:

المقصود أولا وآخرا أن يرى القارئ مشاهدة ما يقوم به جانب من جوانب المغرب، يضم طائفة من أبناء أمازيغ الشّلحيين البدويين، في نشر اللغة العربية وعلومها وآدابها وقد أولعوا بذلك ولوعا غريبا، فقاموا بأعظم دور في ذلك بجهودهم الخاصة من غير أن تعينهم الدولة.

والخلاصة أن مؤلفات محمد المختار السوسي، تعتبر مصادر ومراجع ذات قيمة تاريخية كبيرة وهامة، تتجلى في تدوين جوانب كثيرة من تاريخ المغرب، بالقدر الذي تكتسيه من قيمة أدبية لا تقل أهمية عن تلك القيمة التاريخية، وتتجلى فيما تزخر به تلك المؤلفات من نصوص أدبية شعرية ونثرية للمئات من الأدباء السوسيين على الخصوص.

خاتمة لقد وضع محمد المختار السوسي بحق بصمته في تاريخ الفكر المغربي، ونجح في تحقيق مشروعه العلمي الذي كان غايته خدمة التراث وحفظه من الضياع والانتصار للعربية وعلومها، صداً للمخاطر المستوردة من قبل المستعمر،

كل هذا من باب الواجب الذي قطعه على نفسه منذ أن التصق اليراع في يده رغم ما عرفت حياته من صعوبات، إلا أنه رام أمرا فتم له.

فلا جدال في أن محمد المختار السوسي رمز أدبي مغربي متفرد، سيظل محفورا في الذاكرة لأهمية الدور الذي قام به في خدمة اللغة والأدب. فقد أضحي المختار الأديب الغيور الحريص على مستقبل أمته، علماً على أستحقاق تراث أمته أن يستعيد توجهه وتلقفه، إيماناً منه بأنه لا حياة ولا تجديد للأمة العربية الإسلامية دون حفظ لسانها. وهو ما تيسر له بواسع ثقافته وقوة حجته وبعد نظره الذي لا تلين الأحداث وعوائقها من عزمه: فاستفاد من تجربة المنفى ووظيفها للكتابة والتأليف خدمة لتراث منطقته وتاريخ وطنه؛ كما نرى للفكر الاستعماري فرأى أن لا سبيل لرد الأمور إلى نصابها إلا بالتمسك بعلم العربية التي جعل منها عنوان شرف الأمة.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

صحيح الإمام البخاري، دار الكتب العلمية ط1 (195/1)

الرسالة، للإمام الشافعي، ص46، تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر، ط. مصطفى البابي الحلبي، القاهرة 1940 م

الزجاجي الإيضاح في علل النحو تحقيق د. مازن المبارك، ط4، دار النفائس بيروت، 1402 هـ

المعسول في الإلغيين وأساتذتهم وتلامذتهم وأصدقائهم السوسيين / دار الكتب العلمية، ط/الأولى بيروت /2014

خلال جزولة، دار الكتب العلمية ط، الأولى سنة لبنان 2015

الإلغيات/ دار الكتب العلمية ط/1 لبنان 2015

متراعات الكؤوس في آثار طائفة من أدباء سوس تحقيق ود أحمد السعيد/ الكتب العلمية ط1 لبنان 2013

سوس العالمة/ د، الكتب العلمية، ط1 لبنان 2014

عبد الله الجبراري: من أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين: الرباط وسلا ط الأمنية /الرباط ط1/ 1971

محمد بن العباس القباج، الأدب العربي في المغرب الأقصى، الجزء الثاني، مطابع فضالة، الطبعة الثانية، المحمدية، 1979

الرافعي، أوراق الورد، مصر الطباعة السلفية 1931.

عباس الجبراري الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها.

مقالات وآراء في اللغة العربية، للدكتور حمد بن ناصر الدخيل، ص53-54، الطبعة الأولى، دار الشبل بالرياض، 1415 هـ.

¹ باحث في سلك الدكتوراة، وحدة النص الأدبي العربي القديم، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد الملك السعدي، تطوان.

² -المختار السوسي المعسول في الإلغيين وأساتذتهم وتلامذتهم وأصدقائهم السوسيين / دار الكتب العلمية، ط/11 بيروت 2014 ج1 ص14

³ - محمد بن العباس القباج، الأدب العربي في المغرب الأقصى، الجزء الثاني، مطابع فضالة، الطبعة الثانية، المحمدية، 1979، ص60.

4- أعلام الفكر المعاصر: من أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين: الرباط وسلا ط الأمنية /الرباط ط1/ 1971

ج 2 ص 79.

5- الإلغيات ج1 ص:20

6- خلال جزولة ج1 ص: 98

7- المعسول: 1/ 34

8- المعسول: 1/ 34

9- نفسه: ص35

- 10- اللغيات: 3 / 203
- 11- اللغيات: 3 / 202
- 12- اللغيات 3 / 120
- 13- الرافعي، أوراق الورد، مصر الطباعة السلفية، 1349هـ/1931 م - ص 212.
- 14- أحمد السعيدى دراسة وتحقيق لمتراعات الكؤوس ص:71
- 15- عباس الجيراي الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها ص:7
- 16- المعسول 1 / 25
- 17- يقول المختار المعسول ج، 1 ص:21
- 18- سوس العالمية ص: 14
- 19- صحيح. رواه البخارى (1/195)
- 20- الرسالة، للإمام الشافعي، ص46، تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر، ط. مصطفى اليابى الحلبي، القاهرة 1940 م
- 21- الإيضاح في علل النحو: للزجاجي ص91، تحقيق د. مازن الميارك، ط4، دار النفائس ببيروت، 1402 هـ..
- 22- مقالات وآراء في اللغة العربية، للدكتور حمد بن ناصر الدخيل، ص53-54، الطبعة الأولى، دار الشيل بالرياض، 1415 هـ..
- 23- (المعسول: 33/1).
- 24- المعسول: 33 / 1
- 25- " (المعسول لمحمد المختار السوسي، 23/1).
- 26- المعسول لمحمد المختار السوسي، 23/1).
- 27- المعسول 1/ص:22 21
- 28- خلال جزولة الجزء الثالث ص204
- 29- المعسول 33 / 1
- 30- اللغيات: 1 / 42
- 31- اللغيات: 1 / 42
- 32- اللغيات: 1 / 42
- 33- المعسول: 1/35-36
- 34- اللغيات: 1 / 42
- 35- اللغيات: 1 / 18
- 36- المعسول : 1/28